مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الأثر الاجتماعي للعلاقات الزيرية الفاطمية في المغرب الأدنى ومصر (٤ – ٦هـ/ ١٠ – ١١م)

د. ماجدة مولود رمضان الشرع
أستاذ مشارك في التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة طرابلس – دولة ليبيا

مُلَخّص

يتناول المقال الأثر الاجتماعي للعلاقات بين الدولة الفاطمية في مصر والإمارة الزيرية في المغرب الأدنى خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى السادس الهجري (١٠–١١م)، مركزًا على التحولات التي مست المجتمعين نتيجة التفاعل السياسي والاقتصادي والثقافي بين الجانبين. انطلقت الدراسة من فرضية أن العلاقات بين الشعوب لا تتوقف عند حدود السياسة والاقتصاد، بل تنعكس بعمق في البنية الاجتماعية والثقافية، وهو ما تؤكده ظواهر التمازج السُكاني والعادات المشتركة بين مصر والمغرب الأدنى خلال العصر الفاطمي الزيري. فقد أدى التبادل التجاري المتنامي إلى استقرار أعداد من المغاربة في مدن مصرية، لاسيما الإسكندرية وقوص وصعيد مصر، حيث تركوا بصماتهم في الأسواق والأطعمة والعمران واللباس، في مقابل حضور مصري ديمغرافي واقتصادي في بلاد إفريقية. أبرزت الدراسة كذلك انتقال أنماط من الاحتفالات والطقوس، مثل مواكب الأعياد والمناسبات الدينية، من الفاطميين إلى الزيريين، مما يدل على عمق التفاعل الثقافي، كما رصدت المظاهر العمرانية التي شهدها البلدان نتيجة هذه العلاقة، مثل إنشاء الطرق والأسواق والفنادق والقصور والمشروعات المائية. كما ناقشت الدراسة التأثير العميق للهجرة الهلالية على المجتمع المغربي من حيث نمط العيش، واللباس، والغذاء، محدثة تغييرات اجتماعية عميقة. خلصت الباحثة إلى أن العلاقات الفاطمية الزيرية شكلت قناة حيوية لنقل المظاهر الاجتماعية والثقافية والعمرانية بين المشرق والمغرب، وأن هذا التفاعل تجاوز السياسة نحو إعادة تشكيل الحياة اليومية. وتوصي الدراسة بقراءة العلاقات بين الدول الإسلامية في ضوء أثرها الاجتماعي، لا الاكتفاء بالجوانب السياسية التقليدية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٩ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣١ يناير ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

الفاطميين؛ الزيريين؛ المغرب الأدنى؛ الأطعمة المغربية؛ الخلافة الفاطمية؛ الهجرة الهلالية؛ المجتمع المصري

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.446488

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ماجدة مولود رمضان الشرع. "الأثر الاجتماعي للعلاقات الزيرية الفاطمية في المغرب الأدنى ومصر (٤ – ٦ هـ/ ١٠ – ١١م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السبعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ٧٣ – ٨١.

Corresponding author: mmgda2223@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

تتميز العلاقات بمختلف أنواعها بين الشعوب الإنسانية عادة بوجود نوع من التأثير والتأثر على نمط الحياة اليومية سواء من حيث التجدد السكاني الديموغرافي لأي منطقة بدخول عناصر سكانية مختلفة من تُجار وصُنّاع وحرفيين، أو ظهور عادات وتقاليد اجتماعية من حيث الملبس والمأكل والاحتفالات مما يفسح المجال لحدوث تمازج وانصهار الشعوب بعضهم لبعض، هذا ما حدث فعلاً بين سكان مصر وسكان المغرب الأدنى خلال القرنين الرابع والسادس الهجري/ العاشر والحادي عشر للميلاد.

فقد شهدت بلاد المغرب الأدنى ومصر خلال الفترة التاريخية (٣٦١ – ٤٥٣/ ٩٧٢ – ١١٠٧م) وجود علاقات سياسية واقتصادية وعلمية وثقافية بين الفاطميين بمصر والزيريين بالمغرب الأدنى، حيث اتسمت تلك بالودية تارة وبالعدائية تارة أخري كلاً على حسب مدى قبول الخليفة الفاطمي للأمير الزيري ومدي طاعة الأخير للسلطة الفاطمية على بلاده آنذاك، خلفت تلك العلاقات خاصةً الاقتصادية وضع اجتماعي لكلا المنطقتين تجسدت في وجود ديمغوجية سكنية مصرية في المغرب الأدنى والعكس وجود حالة سكانية لمغاربة بمصر، كذلك وجود تمازج في العادات والتقاليد من حيث المأكل والملبس والمسكن بين سكان المنطقتين.

في هذا المقال سيتم التطرق إلى كيفية نتائج هذه العلاقة على صعيد الاجتماعي من طرح ثلاثة محاور رئيسة على النحو التالي: (حياة السكان في مصر وإفريقية، المدن والعمران، النتائج الاجتماعية للهجرة الهلالية).

أولاً: حياة السكان في مصر والمغرب الأدنى

أسهم التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين في وجود تأثيرات اجتماعية تمثلت في استقرار وإقامة عدد من المغاربة في بعض مدن وقرى مصر، فقد تواجد عدد كبير منهم في[١] مدينة قوص[٢] التي اشتهرت بكثرة أسواقها ومرافقها التجارية جعلت من التجار المغاربة يتوافدون عليها بقصد الاتجار والمتاجرة[٣]، حيث وصفها ابن جبير بقوله: "محط للرحال ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين" [٤]. أيضًا اشتهرت منطقة الصعيد بجنوب مصر بوجود جالية كبيرة من المغاربة؛ وذلك لتميزها بكثرة المراكز التجارية التي عجت بالتجار المغاربة الذين جاءوا إليها بغرض التجارة والإقامة فيها، ومن القرى التي أقام فيها المغاربة قرية بني تهلان[٥] بالهنساوية[٦]، حيث ينسبون هؤلاء إلى قبيلة لواتة المغربية[٧].

أما قبيلة هوارة فقد استقرت طائفة منهم في إقليم الجيزة منذ العصر الفاطمي، ثم نزحت هذه القبيلة إلى صعيد مصر، حيث لم يجدوا أية صعوبة في الاستقرار والتوطن فيه، فعظم أمرهم وأشتد بأسهم واشتغلوا بالزارعة [٨]. تعتبر مدينة الإسكندرية بالنسبة للمغاربة المحطة الأبرز والأساسية لهم في عملية الحج والتجارة، لذلك نلاحظ إنهم عملوا على استكثار الوكالات والمخازن الخاصة بتخزين السلع التجارية بالمدينة التي كانت تجلب من بلاد الهند والشرق الأقصى، وبلاد الحجاز، فساهم هذا في إيجاد تنظيم اجتماعي خاص بهم بالإسكندرية[٩].

إضافة إلى ذلك يلاحظ أن تأثير المغاربة على الحياة الاجتماعية في مصر بلغ ذروته وعنفوانه إلى حد تأثر الخلفاء الفاطميين؛ وذلك من خلال تزينهم بأنواع من الثياب ذات الأصول المغربية، هذا ما أشار إليه ناصر خسرو في وصفه للمشهد الاحتفالي الخاص بموكب الخليفة المستنصر بالله عندما قال: "وقد ارتدى قميصًا أبيض عليه فوطة فضفاضة كالتي تُلبس في بلاد المغرب".[١٠] كان من الطبيعي أن يترك المغاربة تأثيراتهم على المجتمع المصري في العصر الفاطمي، فقد كانت هناك أسماء مغربية لبعض الأسواق داخل عدد من المدن المصرية، مثل سويقة المغاربة وسوق برير بالفسطاط، وسوق المغاربة بالإسكندرية، حيث كانت تباع فيها أنواع من الثياب والفرش المغربية منها البرانس والملاحف، والأحذية المطرزة، والبسط الصوفية[١١].

فيما يتعلق بالأطعمة المغربية، فقد كان لها وجود في مصر الفاطمية، حيث ذاع صيت الأكلات المغربية داخل المجتمع المصري منها أكلة "المروزية" ذات الأصل الفارسي، حيث انتقل تداولها إلى المغرب ومن ثَمَ إلى مصر، وكانت هذه الأكلة تُعد في المناسبات مثل شهر

رمضان والأعياد الدينية الأخرى[١٢]، ومكوناتها تتمثل في لحم الدجاج المُتبل بالتوابل مع الزيت واللوز المقشر، وُصفت هذه الأكلة بأنها" من أطعمة إفريقية والبلاد المصرية".[١٣] كذلك شاعت في مصر أكلة " الكسكسي" المعد من القمح الصلب، وهو طعام سريع الهضم ويُعَدّ من الأطعمة المهمة عند المغاربة[١٤]. إضافة إلى الأطعمة السابقة، عرف المصريون عدد من أطعمة الحلويات المغربية الأصل مثل حلوى "الزلابية" المُعدة من الدقيق الذي يعجن ومن ثَمَّ يتم تخميره، ثُم تؤخذ العجينة على هيئة أقراص وتقلى في الزيت ومن ثَمَّ تحلى بالسكر أو العسل[١٥].

تأثر الأمراء الزيريين بالخلفاء الفاطميين في مظاهر فخامتهم وبذخهم وترفهم في الاحتفالات الدينية مثل احتفالاتهم برأس السنة الهجرية، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والاحتفال بقدوم شهر رمضان، حيث يأمر الأمراء بتوزيع الأطعمة والحلوى والصدقات على الناس، إضافة إلى إصدارهم لحزمة من القوانين التنظيمية التي من شأنها أن تنظم عملية الاحتفال بهذه المناسبات منها إغلاق حانات الخمر، ومنع بيعه ابتداء من أول شهر رجب إلى نهاية شهر رمضان[١٦].

إضافة إلى ذلك تأثر الزيريون في احتفالاتهم ببعض الأعياد والمناسبات الدينية الفاطمية، حيث داوموا على الاحتفال بها سنويًا، منها الاحتفال بيوم عاشوراء الذي قُتل فيه الحُسين بن على بن أبى طالب[١٧]، وظل يُحتفل به حتى القطيعة السياسية والمذهبية والاقتصادية في عهد المُعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ/ ١٠١٦ - ١١٠٧م) الذي عمل على إلغاء الاحتفال بيوم عاشوراء، لكن أعيد الاحتفال به من قبل الزيريين بما يتوافق ومع السُنة النبوية الشريفة، حيث أصبح الاحتفال به في اليوم التاسع من شهر محرم "يواظبون فيه على أكل الدجاج والطعام الذي يقال له الدويدة وهو بمثابة الكنافة عند المصريين"[١٨].

كما احتفل الزيريون بعيد النيروز الذي يحتفل به عادة في بداية فصل الربيع[١٩]، وهو من الأعياد القديمة التي احتفل بها الفاطميون، حيث كانت فكرة هذا العيد من بلاد فارس[٢٠]، ويصف لنا ابن أبى دينار مظاهر هذا العيد بقوله: "ينفقون فيه أموالاً لا تحصى، ويتفاخرون فيه بالأطعمة الفاخرة التي لا توصف... ويباع في هذا العيد النارنج والليمون الحلو..ويستمرون على هذه الحالة خمسة عشر يومًا"[٢١].

أيضًا من الاحتفالات الاجتماعية التي احتفل بها الزيريون الختَان الجماعي[٢٢] للأولاد الذي يعتبر من شروط الإيمان الصحيح، وفقًا لمقتضيات الشريعة الإسلامية [٢٣]، حيث يرجع الفضل في إرساء دعائمه في بلاد المغرب إلى الخليفة المُعز لدين الله الفاطمي، ومن ثَمَّ أصبح هذا الاحتفال تقليدًا متعارف عليه في الإمارة الزيرية [٢٤]، ففي سنة (٤٠٧هـ/١٠١٧م) خُتن المُعز بن باديس مع عدد من أبناء الفقراء الضعفاء الذين وزعت عليهم الكسوة والنفقة[٢٥].

دأب كل من الخلفاء الفاطميون والأمراء الزيريين على الظهور في مواكبهم الرسمية بمظاهر الفخامة والأبهة التي تعكس حالة الترف والبذخ في حياتهم اليومية، فقد أشار ناصر خسرو إلى الموكب الذي ظهر به الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦- ١٠٩٥م). في إحدى الأعياد المسماة بعيد فتح الخليج الخاص بنهر النيل، حيث ذكر بأن الخليفة "لبس ثوبًا من الحرير مرقوم بالذهب... ويسير في ركاب الخليفة عشرة آلاف فارس على خيولهم سروج مذهبة... وكذلك تسير جمال كثيرة عليها[٢٦] هَوَادِجُ[٢٧] مزينة، وبغال هوادجها مرصعة بالذهب والجوهر، وموشاة باللؤلؤ".[٢٨]

أما عن المواكب الأميرية في المغرب الأدنى، نالت هي الأخرى حظها من الفخامة والترف والبذخ سواء كانت تلك المواكب خاصة بأفراح الأمراء الزيريين أو بأتراحهم، ففي سنة (٤١٢هـ/ ١٠٢١م) توفيت والدة المُعز بن باديس الذي رصد مبلغ مالي كبير قُدر بمائة ألف دينار؛ لغرض تجهيز مراسم جنازتها، حيث عُمل لها تابوتًا من العود الهندي مرصعًا بالجوهر وصفائح الذهب، وسُمر التابوت بمسامير الذهب، وذُر عليها من المسك والكافور... وأمر المُعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت"[٢٩]، وفى سنة (٤١٤هـ/١٠٢٣م) توفيت عمته أم ملال "فحضر مأتمها بالطبول والأعلام وكانت من الترف والبذخ لم ير الملك ولا لسوقه مثلها"[٣٠]. في سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) تزوجت أم العلو أخت المُعز، "حيث زُين القصر، ودخل الشعب كله ليشاهد

جميع الأحجار الكريمة والمنسوجات... والأواني الفضية والذهبية المقدمة لها"[٣١].

نلاحظ أن الغرض من ظهور الخلفاء الفاطميين والأمراء الزيريين بهذه الهالة من الفخامة يدل على رغبتهم في كسب محبة الناس وفى الوقت نفسه إظهار الهيبة والقوة لمن يحاول زعزعة استقرار دولتيهما سياسيًا.

ثانيًا: المدن والعمران

أدى توجه الخلافة الفاطمية والإمارة الزيرية للتجارة الخارجية إلى حدوث طفرة عمرانية كبيرة ساعد في حدوثها الازدهار الاقتصادي الكبير الذي شهدته الدولتين، فكانت مظاهره تمثلت في إنشاء الطرق التجارية بنوعيها البرية والبحرية، والفنادق، والمساجد والقصور، والأسواق، والمشاريع الإنمائية، والوكالات التجارية. فقد ساهم التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين في التأثير على الحياة العمرانية بمصر، حيث انتشرت الطرق التجارية بين الطرفين سواء القادمة من الإسكندرية أو من داخل إفريقية فكانت تلتقي كلها في مدينة الفسطاط التي كانت تمر من خلالها كافة أنواع البضائع الشرقية والغربية من منسوجات ومعادن[٣٢].

وصف المقدسي ثراء مدينة الفسطاط بالقول: "إن الأسواق قد التفت حول جامع عمرو، إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضأة وهو أعمر موضع بمصر"[٣٣]. كما أشار ناصر خسرو إلى كثرة الأسواق والدكاكين في مصر بقوله: "أن جزيرة تنيس بها أسواق ضخمة وجامعان، ويبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان، منها دكان عطار"[٣٤]، وذكر في موضع آخر "أن مدينة القاهرة بها ما لا يقل عن عشرين ألفًا دكان كلها ملك للسلطان، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين"[٣٥]، وأشار كذلك في موضع آخر إلى سوق القناديل الذي يقع بالقرب من مسجد "جامع الجوامع" بالقاهرة حيث قال: "لا يعرف سوق مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف، ورأيت هناك الأدوات التي تصنع من الأمشاط ومقابض السكاكين، ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون[٣٦] بورًا [٣٧] غاية في الجمال وهم يحضرونه من المغرب "[٣٨].

كانت الخزانة المالية الخاصة بالدولة الفاطمية تُدعم بأموال من المغرب وخاصة من المغرب الأدنى، وقد أكد ناصر خسرو ذلك بقوله: "وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزانة سلطان مصر يوميًا ألف دينار مغربي"،[٣٩] وتستخدم هذه الأموال في إقامة بعض المشروعات الخدمية التي تخدم البلاد والعباد" وأقيمت بمصر[٤٠] سَواقٍ[٤١] كثيرة على المرتفعات والتلول؛ وذلك حتى لا تغرق... وقد أنشئوا على الشاطئ... جسرًا من الطين ليسير عليه الناس، وتصرف خزينة السلطان كل سنة للعامل المعتمد عشر آلاف دينار مغربي لتجديد عمارته، ويجهز أهل الولاية حاجاتهم الضرورية كلها"[٤٢].

كما كان للتبادل التجاري الفاطمي الزيرى أثره في انتشار الوكالات التجارية في مصر، حيث ذكر ناصر خسرو أنه عندما عزم على مغادرة [٤٣] مدينة أسوان[٤٤] إلى بلاد الحجاز كتب كتابًا إلى وكيله في [٤٥] عيذاب [٤٦] يوصيه بأن يدفع له ما يريد مهما كانت قيمته، وأن ناصر سيعطيه مقابل ذلك صك نقدي يغطى قيمة مائة منٍّ، من الدقيق[٤٧]. كما تفانى الفاطميون في بناء القصور والتي تشهد بثراء مصر ورخائها اقتصاديًا مثل قصر ومسجد القرافة الذي بنته تغريد ابنة الخليفة المُعز لدين الله سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)[٤٨] والقصور التي بناها الخليفة العزيز بالله في منطقة عين شمس بالقاهرة[٤٩] التي منها قصر اللؤلؤة وقصر الجوهرة[٥٠].

أما الإمارة الزيرية، فقد تميزت هي الأخرى بطفرة عمرانية كبرى تمثلت في إنشائها لعدد من الطرق التجارية البرية منها والبحرية، إضافة إلى الفنادق والأسواق، والمساجد والقصور، وبعض الوكالات التجارية المنتشرة في عدة مدن ساحلية بإفريقية، نذكر منها:

٢/١-الطرق البرية

كانت هناك عدة طرق برية داخل الإمارة الزيرية ساهمت في سهولة العملية التجارية بين مدن المغرب والمشرق الإسلامي، فقد أشار المقدسي إلى الطريق التجاري البري الذي يربط طرابلس بالقيروان، حيث يمر هذا الطريق بعدة مناطق عمرانية مأهولة منها مناطق

كنانة واليسر، وبئر زيتونة، وقابس والفوارة، وقصر الدرق، وبحر الحمالين وصولاً إلى طرابلس[٥١].

أشار الإدريسي إلى الطريق الذي يربط بين قابس وطرابلس، حيث يمر هذا الطريق بوادي أحناس وبئر زناتة، وتامدفيت، وآبار العباس، وبئر الصفا وصولاً إلى طرابلس[٥٢]. تحدث ابن حوقل عن الطريق الذي يربط القيروان بالمسيلة، فذكر أنه يبدأ من القيروان فيمر بجلولا ومن ثَمَ إلى آجر، ومنها إلى الأربس وتامديت ثُم إلى تيفاش[٥٣]، أيضًا هناك طريق آخر متفرع يربط القيروان بقلعة أبى الطويل، فيمر بالأربس وتيفاش، والقصر الإفريقي ووادي الدنانير، وتيجس وصولًا إلى قلعة أبى الطويل[٥٤].

أما الطرق البرية التي تربط إفريقية بالمغربين الأوسط والأقصى، فنذكر منها الطريق الذي يربط بين القيروان ووهران، حيث يمر بعدة مدن ومناطق ومحطات تجارية منها قصر المنصور بن سنان وأحساء عقبة بن نافع، وبسكرة وتوزر وقفصة ومن ثَم إلى وهران[٥٥]. بالنسبة للمغرب الأقصى كان هناك طريق تجارى يربط بين القيروان وفاس، فيمر هذا الطريق بقفصة وقسطيلة، وتاهرت ومنها إلى فاس[٥٦]، إضافة إلى الطريق الذي يربط منطقة النكور بالقيروان والذي يمر بوادي نهر ملوية وجراوة[٥٧].

أما الطرق البرية التي تربط مدن إفريقية بالمدن المصرية، فتتمثل في الطريق الذي يربط برقة بالإسكندرية، فيمر بقصر الندامة وتاكسنت، ومعار الرقيم، وكنائس الحرير، والطاحونة ومن ثَمَ إلى الإسكندرية[٥٨]. ذكر المراكشي أن الطريق البري الذي يربط القيروان بالإسكندرية كان عامرًا، وهذا فيه دلالة على أن هناك اتصال عمراني بينهما والذي جاء نتيجة للقوافل التي كانت لا تنقطع فيها فهي كانت تمشى فيها ليلًا ونهارًا[٥٩].

٢/٢-الطرق البحرية

ساهم النشاط التجاري الزيرى في وجود عدة طرق بحرية تربطهم بسواحل البلدان التي تنشط معهم تجاريًا سواء كان ذلك مع مصر أو مع الأندلس، أو صقلية، فهناك مدن إفريقية تقع على الساحل كانت لها موانئ تستقبل فيها السفن التجارية نذكر منها: سوسة التي تشتهر بمينائها البحري وبصناعة المراكب[٦٠]، وتونس التي تشتهر بميناء رادس البحري[٦١]، وجربة التي بها ميناء يُصدر منه الزيت إلى مصر وصقلية، والمدن الإيطالية[٦٢]. أما طرابلس، فكانت تصل إليها المراكب محملة بمختلف أنواع التجارات، كما تأتى إليها مراكب من بلاد الروم ومن أرض المغرب[٦٣].

تكثر بمدينة بنزرت الموانئ والمراسي؛ وذلك بحكم موقعها على ساحل البحر مثل مرسى الوادى[٦٤]، ومرسى بنى وجاص، ومرسى القبة[٦٥]. كانت هذه الموانئ تنشط في فصول السنة المعتدلة وتتوقف في فصل الشتاء، فتتحول التجارة البحرية إلى التجارة البرية المتمثلة فى ثلاثة طرق تمر من سجلماسة إلى القيروان، فطرابلس فبرقة حتى تصل إلى مصر، وبذلك تكون هذه الطرق قد سدت الفراغ الذي يتركه توقف الرحلات البحرية[٦٦].

الفنادق وهي عبارة عن أبنية تتألف من عدة طوابق، حيث تخصص الطوابق العليا منها للسكن في حين تكون الطوابق السفلى كمخازن[٦٧]. انتشرت الفنادق بشكل كبير في عدة مدن المغرب الأدنى؛ نظرًا لإقامة التجار من مختلف البلاد وبقائهم لفترات طويلة، فاستدعى ذلك وجود عدد من الفنادق من أجل إيوائهم وبضائعهم، وكان لهذه الفنادق دور كبير في انتعاش الحياة الاجتماعية والاقتصادية بإفريقية[٦٨]. ورد ذكر الفنادق في بعض الفتاوى، فقد سُئل الفقيه المازرى عن شريكين في فندق توفى إحداهما وترك ورثة ثُم توفى الآخر وترك ورثة، وقد أدى هذا إلى وقوع نزاع بين الورثة على الفندق[٦٩].

تحدثت بعض المصادر الجغرافية والتاريخية عن الفنادق التي وجدت في بعض مدن المغرب الأدنى، فأشار البكري إلى كثرة الفنادق في مدينة قلشانة -الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة القيروان – حيث بلغ عدد الفنادق فيها عشرين فندقًا، وقال عن مدينة تونس أن بها فنادق كثيرة[٧٠]، كذلك الحال بالنسبة لصفاقس فهي الأخرى تحتوي على عدد من الفنادق[٧١].

٣/٢-المساجد واالقصور

أمر بعض الأمراء الزيريين ببناء بعض المساجد والقصور، كما فعل الأمير المنصور بن بلكين، حيث أمر ببناء مصلى للعيد في رقادة[٧٢]، إضافة إلى بناءهم

لجامع قابس الذي اختلفت فيه الأراء بخصوص بناءه، فأشار التجانى أنه من بناء الزيريين تارة، وتارة يشير إلى أنه من بناء الأعراب الهلالية الذين ينسبون إلى بنى جامع[٧٣]، كما قام الزيريون في سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م بتجديد جامع مدينة صفاقس، وفى سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) تم ترميمه[٧٤]. أيضًا قام الزيريون ببناء القصور مثل قصر" المنصورية الكبير" والذي وضعت له جدوة اقتصادية تقدر بحوالي المائة ألف دينار، وقيل إن عملية بنائه استغرقت سنة واحدة وكان هذا في سنة (٣٧٦هـ/٩٨٦م)[٧٥]، وقصر "الخورنق والإيوان" اللذان تم بناءهما في عهد المُعز بن باديس[٧٦].

٢/٤-الأسواق

اشتهرت عدة مدن المغرب الأدنى بوجود كم هائل من الأسواق بأنواعها اليومية والموسمية والأسبوعية، فمدينة القيروان اشتهرت بوجود عدد كبير من الأسواق والمتاجر، مثل سوق ابن هشام وسوق الأحد الواقع إلى الغرب من المدينة، وهو من أكبر الأسواق في القيروان يباع فيه الأقمشة والفخار، إلى جانب ذلك يوجد سوق العبيد الذي يُعرف كذلك بسوق البركة، إضافة إلى سوق الدجاج، وسوق الكتانيين، وسوق الغزل[٧٧].

٢/٥-المشروعات الإنمائية

ساهم الرخاء الاقتصادي الذي تميزت به الإمارة الزيرية في إنشاء بعض المشاريع المائية الإنمائية والتي تخدم العباد، منها مشروع قناة القيروان، حيث تم ربط هذه المدينة بالبحر[٧٨]، وكان صاحب هذه الفكرة العالم أبو الطيب عبد المنعم بن محمد ابن إبراهيم الكندي (ت. ٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م) الذي جعل للقيروان مرسى بحري يُجلب إليها الماء من مدينة تونس، ووضع رسالة هندسية توضح هذه الفكرة[٧٩].

٢/٦-الوكالات التجارية

أدى التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين إلى كثرة الوكالات التجارية وهي عبارة مستودع تخزن فيه البضائع وتدار منها المعاملات التجارية، فكان لمدينة القيروان نصيب من هذه الوكالات،[٨٠] إضافة إلى انتشارها في قابس وتونس وسوسة، حيث يديرها التجار اليهود[٨١].

ثالثًا: النتائج الاجتماعية للهجرة الهلالية

كان للغزوة الهلالية[٨٢] تأثير على المغرب الأدنى دون مصر من الناحية الاجتماعية، فقد أسهمت في انتشار الأغاني والأهازيج والرقصات، واستعمال الطبول بكثرة في المناسبات الاجتماعية[٨٣]، أيضًا كان للهلاليين تأثير على أسلوب الحياة لدى سكان المغرب، وذلك من خلال انتشار استخدام الخيام التي غطت السهول، فقد كان أهل البادية في السابق يقيمون في مساكن بدائية تسمى بالأكواخ والمصنوعة من عيدان القصب وجريد النخيل[٨٤].

أما الألبسة، فقد شهدت هي الأخرى تغييرًا عند سكان المنطقة، فقد انتشر لباس العمائم ولبس المخيط بالنسبة للرجال الذين كانوا في السابق يلبسون القمصان والسروايل والجُبب من الصوف، وبالنسبة للنساء كثر لباس القميص الأسود ذو الكم العريض مع لباس الخمار على الوجه بعدما كُنّ النسوة المغربيات في السابق يلبسن رداء مصنوع من الحرير أو من القطن[٨٥].

أما عن الأطعمة، فكان للهلاليين تأثير على عادات سكان المنطقة المغربية في مأكلهم، حيث ادخلوا نوعية من الأكلات العربية القديمة منها البسيس[٨٦] والعصيد[٨٧] والثريد[٨٨].

خَاتِمَةٌ

نستخلص مما سبق أن القبائل الهلالية استطاعت أن تحدث تأثيرًا على سكان المغرب من الناحية الاجتماعية، وتجلى ذلك في تأثر المغاربة بعادات وتقاليد اجتماعية هلالية لم تكن مألوفة لديهم من قبل سواء كان ذلك في المأكل والملبس، والمسكن.

أيضًا نستخلص أن حجم التبادل التجاري بين الفاطميين والزيريين كان له عظيم الأثر على الناحية العمرانية بين الطرفين، فقد انتشرت الطرق التجارية البرية والبحرية، وكثرت الفنادق والمساجد والقصور، ووجدت بعض المشاريع الهندسية التي تخدم العباد، إضافة إلى الوكالات التجارية التي تميزت بها مصر والمغرب الأدنى وكان لليهود دورًا بارزًا في إحداثها بالمنطقة.

أيضًا كان للتبادل التجاري بين الطرفين أثره على الحياة الاجتماعية من خلال تشابه الطرفين في بعض العادات والتقاليد سواء من حيث اللباس، أو الأطعمة أو في الاحتفالات ببعض الأعياد والمناسبات الدينية.

الإحالات المرجعية:

(١) حسن خضيري أحمد: **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م. ص ٢٤٤.

(٢) تقع هذه المدينة في الجهة الشرقية من نهر النيل، تتميز بمساحتها الواسعة وكثرة ضروب التجارة بها. انظر: الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٤٨٤.

(٣) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٤٤.

(٤) رحلة ابن جُبير دار صادر، بيروت، د. ت، ص ٤٠.

(٥) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٦) مدينة من مدن الصعيد، وصفت بأنها جامعة الأمم. انظر: الحميري: **الروض المعطار**، ص١١٤.

(٧) المقريزي: **البيان والأعراب** (Gottingen، ١٨٤٧م) ص ٣٣.

(٨) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٩) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص٢٥١.

(١٠) **سفر نامه**، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م. ص ١١١.

(١١) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(١٢) ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، طبعة تونس ١٢٨٦هـ، ص ٢٨٨.

(١٣) مجهول: **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، تحقيق. أمبروزيو ميراندا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مج٩-١٠، مدريد، ١٩٦٢م، ص ١٨١.

(١٤) المصدر نفسه والصفحة.

(١٥) مجهول: **كتاب الطبيخ**، ص ٢١٦.

(١٦) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٧٠- ٢٧١-٢٧٢.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

(١٨) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص٢٨٩.

(١٩) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٢٠) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الدولة الفاطمية الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م.، ص ٦٥٩.

(٢١) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٢٢) **الخُتن**: هو موضع القطع عند الذكر والأنثى. انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، مج ١٣، دار صادر، بيروت، (د.ت). ص ١٣٨.

(٢٣) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج٩، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، القاهرة، (د. ت)، ص ٧٤.

(٢٤) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص ٢٨٠- ٢٨١.

(٢٥) النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢٤، تحقيق: حسين نصار وعبد العزيز الأهوانى، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١١٣.

(٢٦) سفر نامه، ص ١٠٩.

(٢٧) مفردها هَوْدَجٌ. محمل له قبة تركب فيها النساء على ظهر الجمل. أشرف طه أبو الذهب: **المعجم الإسلامي**، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م. ص ٦٤١.

(٢٨) سفر نامه، ص ١٠٩.

(٢٩) ابن عذارى: **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج١، تحقيق: ج-س- كولان اليفى بروفنسال، الدار العربية للكتاب، تونس – ليبيا، (د. ت)، ص ٢٧٠-٢٧١- ابن أبى دينار: المؤنس، ص ٨٣.

(٣٠) المصدر نفسه والجزء والصفحات.

(٣١) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٧٢.

(٣٢) أيمن فؤاد سيد: **الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد**، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٧م.، ص ٤٨٥.

(٣٣) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٩٩.

(٣٤) سفر نامه، ص ٩١.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٣٧) الحصير المنسوج. ابن منظور: **لسان العرب**، مج٤، ص ٨٧.

(٣٨) سفر نامه، ص ١٠٤.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٤١) مفردها ساقِيَة وهي القناة التي تسقى الزرع. أشرف طه أبو الذهب: المعجم الإسلامي، ص ٣٠٩.

(٤٢) سفر نامه، ص ٩٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٤٤) تقع هذه المدينة في الجنوب المصري، حيث تشتهر بتجارتها مع مدن بلاد النوبة، كما تشتهر بكثرة الزروع والتمور والبقول فيها، إضافة إلى اللحوم بكافة أنواعها. انظر: الحميري: **الروض المعطار**، ص ٥٧.

(٤٥) سفر نامه، ص ١٣٥.

(٤٦) تقع هذه المدينة على ساحل البحر الأحمر. الحميري: **الروض المعطار**، ص ٥٧.

(٤٧) سفر نامه، ص١٣٥.

(٤٨) ستانلي لينبول: **سيرة القاهرة**، ترجمة/ د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة، القاهرة، (د.ت) ص ١٣٢.

(٤٩) د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٦٢٨.

(٥٠) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٥١) **أحسن التقاسيم**، ص ٢٤٦.

(٥٢) **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٩٧- ١٩٨.

(٥٣) **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت). ص ٨٧.

(٥٤) البكري: **المسالك والممالك**، تحقيق: أدريان فان ليوفن، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، (د. ت). ص ٥٣-٥٤.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٧٠-٧٥.

(٥٦) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(٥٧) البكرى: المصدر السابق، ص ٩٩.

(٥٨) الإدريسي: **نزهة المشتاق**، مج٢، ص ٢١٩- ٢٢٠.

(٥٩) **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد زينهم، دار الفرجانى، (د- ت).، ص ٤٣٢.

(٦٠) إسماعيل العربي: **المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص ٢٣٢.

(٦١) الزهرى: **كتاب الجغرافية**، تحقيق: محمد حاج الصادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (د. ت)، ص ١٤٣.

(٦٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٣.

(٦٣) المصدر نفسه، ٧٢.

(٦٤) الإدريسي: المصدر السابق، مج٢، ص١٢٣.

(٦٥) البكري: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٦٦) جوايتاين: **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، ترجمة: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م. ص ٢١٩.

(٦٧) سامي سلطان سعد: "**الجاليات الإيطالية التجارية في المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلاد**" (مجلة سيرتا، دار البعث، الجزائر، العدد ١٠، ١٩٨٨م) ص ٩٥.

(٦٨) عثمان الكعاك: **الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط**، منشورات جامعة الدول الإسلامية، ١٩٦٥م، ص ٦٤.

(٦٩) البرزلى: **فتاوى البرزلى**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م ج٣، ص٩٧.

(٧٠) **المسالك والممالك**، ص ٢٨-٢٩، ٥٦.

(٧١) ابن مقديش: **نزهة الأنظار نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، ج١، تحقيق: على الزوارى ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج٢، ٣٣٥.

(٧٢) ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٧٣) رحلته رحلته بين عامي ٧٠٦- ٧٠٨هـ، دار الفرجانى، طرابلس، (د. ت)، ص ٩٥.

(٧٤) ابن مقديش: المصدر السابق، مج٢، ٣٣٥.

(٧٥) ابن عذارى: المصدر السابق، ج١، ص٢٤١.

(٧٦) الحبيب الجنحانى: **القيروان عبر عصور ازدهارها**، الدار التونسية، تونس، ١٩٦٨م، ص ١٢٥.

(٧٧) الهادي روجى إدريس: **الدولة الصنهاجية**، ج٢، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م. ص ٢٠.

(٧٨) الهادي روجي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٣٧.

(٧٩) الزركلي: **الأعلام**، ج ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٦٨.

(٨٠) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ٤٨٩، ٤٩٣.

(٨١) البكري: المصدر السابق، ج١-٢، ص ٣٢٦- زبيدة محمد عطا: **اليهود وتجارتهم في مصر الإسلامية**، الدر الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٧. ص ٦١.

(٨٢) كتب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى الأمير المُعز كتابًا جاء فيه: "هَلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء"، فأجابه المُعز: "إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموهم بأسيافهم" وهو رد قاطع بعدم التفكير في العودة إلى سابق العهد من المودة، وأن المُعز كان يرى في نفسه وقومه ندًا للفاطميين.

دبر الوزير الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازوري خطة للانتقام من المُعز؛ فأرسل القبائل العربية إليه إلى أن هذا الوزير دخل على الخليفة يومًا، فقال له: "إنك تعلم يا مولاي أن سكان الجزيرة العربية تكاثروا إلى حد أن البلاد أصبحت اليوم لا تسعهم جميعًا، وما تنتجه الأرض يكاد يكفي لعلف الماشية... لهذا فإنهم سيهاجرون إلى إفريقية إن أذنت لهم بالهجرة". أعطى اليازوري لكل فرد من قبائل بني هلال وبني سليم دينارًا وفروًا؛ فتوجهوا إلى برقة واستولوا عليها، وكتبوا إلى إخوانهم الذين بشرقي الصعيد؛ يرغبونهم في

البلاد، حيث حصلت بنو سليم على شرقي إفريقية، وبنو هلال على غربها، وخربوا مدينتى أجدابية وسرت.

قيل إن سبب ما أقدم عليه اليازورى، أن المُعز كان لا يقدره، فاستدعى وكيله بالقاهرة أبا القاسم بن الأخوة، وسلمه رسالة فيها تهديد حملها ابن الأخوة إلى المُعز، فقال الأمير له: "ما الذي يريده منى هذا الفلاح، لا كنت عبده، ولا كان هذا ولا يكون أبدًا فلما علم اليازورى برد المُعز، أرسل إليه: "أرسلت إليك خيلاً فحولاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً".

ابن الصيرفي: **الإشارة لمَنْ نال الوزارة**، تحقيق: عبد الله مخلص، طُبع بمطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية، القاهرة، ١٩٢٣م، ص.٤- ٤٢- ابن الملقن: **نزهة النظار** تحقيق. مديحة محمد الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٧٢. التجاني: **رحلته**، ص.٢- المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، ج٢، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج١، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٩م. ص٢١٦. محمد ماهر حمادة: **الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية** (ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م) ص ١٥١.

(٨٣) أحمد بن عامر: **الدولة الصنهاجية**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.ص ٥٥.

(٨٤) الوزان: **وصف أفريقيا**، ج١، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م. ص ٧٥. الهادى روجى إدريس: المرجع السابق، ج٢، ص ٢١٣.

(٨٥) حسن حسنى عبد الوهاب: **بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن الرقيق**، المطبعة التونسية، تونس، د. ت، ص ٤٢-٤٣.

(٨٦) عبارة عن الخبز المجفف المدقوق. ابن منظور: لسان العرب، مج٦، ص٢٧.

(٨٧) يصنع من الدقيق المطبوخ والمخلوط بالسمن. ابن منظور: **لسان العرب**، مج٣، ص ٢٩١.

(٨٨) هو الخبز المنقوع في الدسم أو اللحم. ابن منظور: **لسان العرب**، مج٣، ص ١٠٢.